

العقيدة

• الله ربي :

- خاصة الوجدانية .
- خاصة الخلق .
- حكمة الخالق وتوجيهاته لصون ما أبدعه .
- الإسلام منطلق الإخاء بين الملل .
- لماذا يرفض الإسلام الإكراه في الدين .
- خاصة الحكم .
- الالتزام .
- الثمرة الطبيعية لمخالفة الإسلام .
- قيمة الالتزام .
- عورة المسلمة .

• القضاء والقدر :

- الله حكيم .
- نماذج للحكمة في البلاء .
- آثار عقيدة القدر .

• الحساب :

- الله العدل .

• البعث والنشور :

- دليل البعث .

• القرآن ووظيفته السياسية والاجتماعية :

- بعض أحكام القرآن في التلاوة .

الله ربي

• خاصة الوجدانية :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ^(١) * اللَّهُ الصَّمَدُ ^(٢) * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا ^(٣) أَحَدٌ ﴾ ^(٤)

وهذا هو النداء الذي جاءت به الرسل جميعاً من أجل تحرير الإنسان وأمنه وكرامته والحفاظ على حقيقته . فالذي يوحد الله في الألوهية يأبى الاستعباد والانحناء لسواه .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ^(٥)

وفى الفطره اقتناع بأن للوجود خالقاً مالكاً له ، متصرفاً فيه وحده : مهيباً عليه سبحانه ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ * قُلْ أَتَلَا تَذْكُرُونَ ﴾ ^(٦) ، ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَذَقَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَغْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ^(٧) .

ففى النفس إيمان فطرى وبدهى بالله : خالقاً للنفس : إذ أنها شاعرة بعجزها ، وإيمان بالله خالقاً للكون العظيم ، إذ نراه كل يوم ولا نجد له من الناس راعياً . فلا بد أن يكون « مَالِكُ الْمَلِكِ » واحداً ﴿ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ ^(٨) ، ويكون غير أى شئ من العالمين . وغير مرئى ذلك هو الله رب العالمين .

(١) الواحد : المنفرد بالذات فلا يضاهيه أحد . والأحد هو المنفرد بالمعنى فلا يشاركه فيه أحد .

(٢) الصمد : المتناهي في السؤدد والتصرف والكمال - المقصود في جميع الحوائج المستغنى بذاته عما عداه .

(٣) الكفو : العُدل - بكسر العين وسكون الدال - النظر - أو الصاحبة والولد (من الخازن) .

(٤) سورة الإخلاص (٥) الأنبياء : ٢٥ (٦) المؤمنون : ٨٤ - ٨٥

(٧) المؤمنون : ٩١ (٨) فاطر : ٤١

ولكن من طبيعة القصور فى النفس البشرية أن ينفلت منها أحياناً زمام الحقيقة الفطرية ، حقيقة التوحيد فتغيب عن قلب المرء ، فإذا به يشرك بالله الخالق ، مخلوقاً مادياً أو معنوياً . أو مخلوقين ، ولهذا بدأ الله يرد الإنسان إلى الفكر الفطرى . والمنطق الطبعى والتجربى فيهديه بالمنطق إلى فساد القول بالشركاء لله . لأنه لو تعددت الآلهة لكان لكل شخصيته التى تفرض الاختلاف والخصام ﴿ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (١) ، ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٢) .

وحتى أبسط الناس عقولاً وثقافة يدركون هذه البدهية فيقولون : « المركب التى لها رئيسان : تغرق » .

ولا يمكن أن يتصور فى المنطق النظرى أو التجربى أن يكون الله والداً أو مولوداً ، فالولادة عملية عفوية ، أو غير إرادية . تأتى بالرغم من المولود ومما ولد منه . والذى يكون بلا إرادة فى وجود نفسه ، أو بلا إرادة فى وجود غيره منه . يمثل العجز والتبعية والحاجة إلى الله الذى خلق المولود . ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ﴾ (٣) . أعنى أخرج المولود بيسر من مكان ضيق ومنحه الوجود ، وجعله عطية منه للوالد أو الوالدة . وهذا وجه فى تفسير الآية .

ونحن نشعر بالحاجة إلى الولد ليكون سنداً لنا فى الشيخوخة ، وليكون امتداداً لنا فى التاريخ والذكرى .. والإله غنى عن ذلك : لأنه قوى أبداً .. سرمدى الوجود ..

والمواليد خلق متشابهون فى جنسهم .. وخالق الخلق : كل المخلوقين له عبيد .. وتمييز عبد على غيره فى الانتماء إلى الخالق بالبنوة ، ووسم من سواه من المخلوقين بالعبودية ، إنما هو ترجيح بلا مرجح ، وهو ما ينفيه العقل بداهة . والله يقرر هذه الحقيقة الفطرية فيقول : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَكُلاً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٤) .

(٢) الأنبياء : ٢٢

(٤) الزمر : ٤

(١) المؤمنون : ٩١

(٣) عبس : ٢٠

قال « استريدهبر ماسمارت » وهو شاب أمريكي أسلم : « لقد وضعت هذه الآية المسيح فى موضعه الصحيح من تصورى لمكانته كنبى من أنبياء الله المرسلين » .

* * *

• خاصة الخلق :

هو الله الخالق ، أما غيره فلم يخلق العالم ، ولا جانباً من جوانبه ، ولذا أفردته بالعبادة ، وكفرت بسواه ، لأنه غير جدير بذلك : ﴿ أَقَمَّنْ يَخْلُقْ كَمَنْ لَا يَخْلُقْ ، أَقَلَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) ؟ !

وهو الخالق كل ما خلقه على أساس من العلم والحكمة والاتساق . فى أجزاء المخلوق ، وفى الترابط بين جميع المخلوقات التى جعل منها « وحدة العالم » ، ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ (٢) ؟ !

ويعنو وجه العلم والعلماء لعظمة الله الخالق .. فلا يستطيعون خلق قلامة ظفر فى أنملة (٣) ، ولا بث الحياة فى نملة ، ولا يجدون إلا الإبداع فيما خلق الخالق . ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٤) .. هذا منطق المشاهدة يدل على الله الخالق الذى نعبد .

فأنت حين ترى صناعة بدیعة تستشعر أن صانعها مبدع حكيم خبير بما يفعله ، وعندما تلاحظ أنه لا يوجد شيان متشابهان كل التشابه ، حتى الحصى ، فأصبح لكل مخلوق بصماته وخصائصه المميزة .

فترى من المنطق العلمى أن الله واحد لا يمكن أن يكون له شريك فى ذاته أو صفاته ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

* * *

(٢) الملك : ٣ .

(١) النحل : ١٧ .

(٣) قلامة الظفر : ما يقص منه - والأنملة : العقلة الأخيرة من الأصبع التى ركب الله فيها

(٤) البقرة : ١١٧ .

الأظافر .

• حكمة الخالق وتوجيهاته لصون ما أبدعه :

والله العظيم العليم المصور الحكيم الخبير اللطيف فى كل ما خلق ، لا يمكن أن يكون عابثاً فى أعماله الحكيمة التى تشهد بالخلو من العبث ، ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (١) ١٢.

فمن الحكمة أن يكون فى ذهن كل امرئ إدراك أنه ليس إلهاً فى هذه الأرض يعيش فيها كما يشاء له الهوى ، بل هو مخلوق يسير أسيراً فى يد الخالق الرحيم الذى منحه الفكر والقوة ونور البصر والبصيرة (٢) ، ورقة الحواس ، وأنزل له من السماء ماءً طهوراً ليحى به بلدة ميتةً ويسقيه أنعاماً وأناسى كثيراً .

وليس من الحكمة أن يكون مجتمع بلا قانون ونظام يحمى المجتمع من الفوضى والاضطراب والضياع ، فمن المنطق التجريبي أن كل صانع لأى شئ ، وكل مبتكر لأى آلة ، ولأى جماعة ، يضع الضمانات الكافية لحماية الآلة أو الجماعة ، لأنه يحب ما يخلق ويصنع ، وهكذا - والله المثل الأعلى - كان للمخلوقين كتاب ينظم حياتهم ، ويحميهم من الاضطراب والانحلال والإرهاق المدمر ، ويصونهم من الضياع .

فمن منطلق الحب لما خلق : أرسل الله رسله بالكتب مبشرين ومنذرين .. ليضيئوا الطريق لعباده الذين خلقهم وأحبهم ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرَى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) .

ومن منطلق الحب يشيب المرء ابنه ويعاقبه ، ومن منطلق الحب كان ثواب الله وعقابه .

ومن المنطق التجريبي أننا نحب ما يحب آباؤنا ونحترم من يحترمون .

(١) يُتْرَكَ سُدًى : عبثاً لا رقابة ولا محاسبة - سورة القيامة : ٣٦

(٢) الشورى : ٥٢

(٣) القلب والعقل .

وكما أحب الله خلقه ، علينا أن نحبه خلقه ، ونحترم رسله ، فنحبه الناس جميعاً حتى الذين نحمل السيف لقتالهم ، نحبههم ولا نحمل السيف إلا ليرعوا ، كما يحمل الطبيب مبضعه لينقذ بجرح دام مريضاً في طريق الفناء .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

ومن هذا المنطلق أيضاً إقامة الحدود الإسلامية على مقتضى الجرائم الكبرى كالسرقة والزنا والخمر ، والقذف ، وقطع الطريق ، والقصاص ، وفي القتل والجراحات .

* * *

• الإسلام منطلق الإخاء بين الملل :

ونحترم ديانات الناس المنزلة من عند الله وندعوهم بالحسنى إلى الحق ، ونقر بأن الله أرسل رسلكم ف ﴿ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (١) .

وكيف نفرق بين رسول ورسول ؟ إنهم جميعاً سفراء الله إلينا ، فمن كذب رسولاً أو احتقره أو أنكره فقد أهان الرب الذى أرسله .. فكل رسول جاء بالدليل الذى يؤكد لنا أنه سفير الله إلينا ، وقدم أوراق اعتماد السماء له إلينا مثله في معجزاته .

والإسلام وكتابه لما كانا للعالمين فقد فرض إحترام جميع الرسل الذين آمنت بهم كل الجماعات البشرية : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

ونحن كأمة نيط بها دعوة الناس كافة إلى الإسلام - واجبتنا أن ننفذ قرار إحترام الرسل كنقطة تصلح لملتقى للحوار بيننا وبين الناس كافة ، ونجعل الباب موارباً . والله الذى أحبنا ما كان ليتركنا نضيع في متاهات الحياة المظلمة ، فكلنا انطفأ مصباح من مصابيح الهداية بموت رسول بعث رسولاً بمصباح جديد .

(٢) غافر : ٧٨ .

(١) البقرة : ٢٨٥ .

وهكذا حتى جاء محمد ﷺ بمصباح الهدايات التي سبق بها المرسلون السابقون بعد أن أصبحت نسباً منسياً ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ (١).

فمن آمن بالقرآن واهتدى به فقد آمن بكل الكتب السابقة .. ومن كفر بالقرآن ومضمونه فقد كفر بالرسالات السابقة ، لأنها لم تدون قبل محمد ﷺ في كتاب أو أثر بلغة معروفة لنا . وليس لدينا دليل علمي ولا شبه علمي على أن في الأرض كتاباً لله ثابت النسب غير القرآن الكريم ، ولا يجادل في هذا عالم ولا مؤرخ ، سواء أكان مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً أو زرادشتياً . فالكتاب الوحيد الذي دُونَ في عهد رسول الله ﷺ ، ثم نُقِلَ إلينا متواتراً يرربه الثقات عن الثقات حتى وصل إلينا هو القرآن .

وتليه في الدرجة أحاديث الصحاح .. وبهذا فنحن على ثقة من مصادر الإسلام ، وأما غيره من الكتب ففيها يقول ربنا : ﴿ قَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَتَسَوَّاهَا حُطًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (٢) . فهي بفقدان سلسلة الرواية مواليده غير شرعية . إذ هي مجهولة الأنساب بالكلية .

ثم إن دعوة الرسل كلها واحدة ، وإن تكذيب أى رسول يعتبر تكديباً لجميع الرسل منطقياً ، إلى هذا تشير كيفية تعبير القرآن عن تكذيب الأمم لرسولها ، ففي تكذيب نوح يقول : ﴿ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ (٣) . وفي قوم هود يقول : ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٤) .

والإسلام بهذا ليس دين طائفة أو جنس ، فهو رسالة موسى وعيسى وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام، تحدث القرآن عن مضمونها جميعها فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (٥) .

(٣) الفرقان : ٣٧

(٢) المائدة : ١٣

(١) المائدة ٤٨

(٥) الأعلى : ١٨ - ١٩

(٤) الشعراء : ١٢٣ - ١٢٤

وتحدث عن إبراهيم ودعاوي التمزق الطائفي في عصر النبوة فقال : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

وصاح في دعاة التمزق قائلاً في احترام وأدب : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

ومحدث عن وحدة الأصول الدينية فقال : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٣) .

وأعلن القرآن كفر الذين يفرقون البشرية باسم الأديان والرسل فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (٤) .

إننا نحب المرسلين جميعاً ، لأنهم أحباب الله الحبيب ، ونحكي بالاحترام قصصهم ونهتدي بسلوكهم ، وما يرويه غير المسلمين مما يناقض القرآن مرفوض علمياً ، لأنه ليس لروايته إسناد علمي ولا غير علمي ، وما وافق القرآن ، فالقرآن يكفيني : ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥) .

* * *

• لماذا يرفض الإسلام الإكراه في الدين ؟

ونصوص الإسلام لا تقبل إسلام المكره على دخول الإسلام ، والله يُحَرِّمُ إِرْغَامَ غير المسلم على الإسلام : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (٦) .

وسمى الله الذين يظهرون الإسلام دون اقتناع : منافقين .

(٣) الشورى : ١٣

(٦) البقرة : ٢٥٦

(٢) آل عمران : ٦٤

(٥) العنكبوت : ٥١

(١) آل عمران : ٦٧

(٤) النساء : ١٥٠ - ١٥١

وبما أنهم يشكلون في بناء الإسلام اللبنة الهشة ، وفي حلقاته القوية حلقة ضعيفة تهدد السلسلة بالخطر عند استعمالها . . جعل عقوبة المنافق أشد من عقوبة الكافر المستعلن بكفره ، إذ أن المرض الخفي أشد خطراً من المرض الظاهر بأسبابه ومظاهره . . ولذا قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (١) .

ولا خلاف بين علماء المسلمين في هذا الذي أقرره .
إن الإسلام يحترم العقل والقلب . ومن الإذلال لهما إكراههما على الانضواء تحت دين لم يعرفاه .

* * *

• خاصة الحكم :

والله هو الحَكَمُ العَدْلَ مَالِكَ الْمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ .
ومقتضى هذا أن المال مَالُ اللَّهِ ونحن وكلاء الله فيه ، وليس للوكيل أن يتصرف في مال موكله إلا في حدود إذنه . . فقواعد البيع والشراء والكسب والهبة ، وتحديد الكسب غير المشروع كالربا والسرقة والغش والاختلاس والغبن والتعطيف . . كل ذلك له تشريعات ولوائح وقوانين لا يجوز للوكيل (المسلم) فرداً أو جماعة أن يتخطاها . . ومن استحل تخطيها فقد كفر بالله الذي أنزلها .
وكمنازعات الأموال : الخصومات والمخالفات الاجتماعية وقواعد الحياة الاجتماعية المثلى ، وقد وضع القرآن والسنة أحكام كل ذلك . . فاستحلال مخالفتها جريمة في حق الله الحكم العدل ، وافتئات على حق من حقوق الله وهو الحكم : ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ (٢) .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣) .
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (٤) .

(٢) الأنعام : ٦٢ .

(٤) النساء : ٦٥ .

(١) النساء : ١٤٥ .

(٣) المائدة : ٤٤ .

واللجوء إلى أى ساحة للقضاء الذي لا يلتزم حكم الله وتعاليمه مظهر للنفاق .
ولهذا فهو لا يذهب إلى دور القضاء غير الشرعي إلا مضطراً .

ولا عبرة بالاحتجاج بأن القرآن غير كاف لسد حاجات البشر من القوانين أو لمواجهة التطور : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفَبِأَفْئُوسٍ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْصِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

ولم يُنزّل الله القرآن رقية أو تيممة أو قصة للترفيه والتسلية ، أو فلسفة تُغذي العقل ، أو نفحة ترقق الوجدان . وإنما نزّله للحكم بين الناس في كل قضاياهم العقلية والمادية والروحية .

وفي السنة النبوية بيان وتفصيل لما أجمله القرآن كملت به شريعة الإسلام كما قال عليه الصلاة والسلام : « أوتيت القرآن ومثله معه » . وفي مؤتمر القانون الدولي بلاهاي أجمع الأعضاء على أن تشريعات الإسلام وقوانينه هي أسمى التشريعات ، وفي الأزمة التي انتابت العالم عقب الحرب العالمية الأولى قال الفيلسوف برنارد شو : « ما أحوج العالم إلى رجل كمحمد يحل مشكلاته المعقدة بينما يشرب فنجالاً من القهوة » .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَكِنَّ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ (٢) .

وليس من حق أحد ولو كان رسولا أن يقضي بغير ما أنزل الله مهما دخل في روعه أن المصلحة في غير ما نص عليه كتاب الله : ﴿ وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلَمْ أَتَمَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ

(١) النور : ٤٦ - ٥٠

(٢) الرعد : ٣٧

لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١﴾ .

* * *

• الالتزام :

وحينما شرع الرهبان والأخبار - وكانوا حكام قومهم في العصر الروماني - قوانين للناس الذين اعتقدوا قداسة هذه القوانين وقداسة الذين شرعوها . وأنها واجبة الالتزام - وإن خالفت أمر الله - اعتبروا مشركين ، واعتبروا قوماً يؤلهون الرهبان والمشرعين لهم ، وقال القرآن عنهم : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

* * *

• الثمرة الطبيعية لمخالفة الإسلام :

والقرآن عندما يبين أن سبب البلاء مخالفة بعض تعاليم الله حتى وإن وجدت الطاعة في البقية الباقية من تعاليمه سبحانه - إنما يجري مع المنطق التجريبي ، لأن الإصلاح وحدة لا تتجزأ ، وأما ثلثة في النظام الاجتماعي أو الأخلاق الشخصية يؤدي إلى كارثة مدمرة للمجتمع أو الشخص .

ومن أمثلة ذلك ما قاله على بن أبي طالب في حد الخمر (٣) : من شرب سكر ، ومن سكر هذى ، ومن هذى افترى ، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة ، فمن شرب الخمر وجب جلده ثمانين كذلك .

وهكذا قل في الرجل الذي يستبيح « الإسراف » في شيء ما ، فتكون عنده عادة الإسراف ، يندفع بضغط هذه العادة إلى سلسلة أخرى ، من القبائح . . يندفع إلى تناول الشبهات وطلبها ، وهي ذريعة الحرام ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام . كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه : فيسرق .

(٢) التوبة : ٣١

(١) المائدة : ٤٩ - ٥٠

(٣) حد الخمر : العقوبة التي قررتها الشريعة بالنص وحددها - أما العقوبة التي ترك الله

تحديدها للدولة فتسمى « التعزير » .

ويرتشي . ويتستر على المذنبين إن كان في هذا ما يخدم مصالحه حتى تضيع الحقوق . فتختل الحياة الاجتماعية . وهكذا يستدين من أجل مآربه ونزواته . والذين هم بالليل ومذلة بالنهار ، فيصاب بالاضطراب النفسي وتضطرب ميزانية أسرته ، وقد يصاب بالتوتر العصبي . وإذا ألف المذلة للدائنين فقد الإحساس بالكرامة التي وهبها الله للإنسان ومنحه إياها .

وأمة في أفرادها قوم لا يشعرون دانماً بالكرامة تألف تلقى ضربات العدو المذلة . فلا تقاوم ولا تدافع عن حياضها وكرامتها .

والإسراف في الملبس والمطعم والسكن والزينة والمجاملات يوجد الإنسان المترف الذي يشده الترف إلى الحرص والشح والجبن ، والعجز عن مواجهة الشدائد ومناصرة الحق ، ومجالدة الأعداء والحكام الظالمين المستبدين . فيوجد من المترفين أعضاء مشلولون في الجماعة البشرية ، ويتحول المجتمع إلى مجتمع أشل عاجز عن التحرك لحماية الحق فيه . وهذا سبيل الهاوية : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١) .

وهذه صورة تكشف لنا كيف أن الاختلال في السلوك في جانب واحد يشد إلى الهاوية ، ويانقطع حلقة في سلسلة الخلق الاجتماعي بنفط عقد الأخلاق جميعه .

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقسم عليهم مأتماً وعويلاً
ولذا كان ما يسميه علماء الاجتماع الشيوعيون « حتمية الالتزام » بكل قواعد وتعاليم المذهب ، لأنها حلقات يكمل بعضها بعضاً . وبعبارة الإسلام « فرضية الاستقامة » .

إنه التزام للتعاليم السماوية . . ولو أدى إلى مفاصلة الأصدقاء ومنايذة البشرية جميعاً . ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ (٢) .

هذه طبيعة الإيمان بالمبادئ والمعتقدات ، عرفناها في الشيوعية وفلسفتها حديثاً ، وعرفناها في الملل والنحل منذ آلاف السنين ، إلتزام ومفاصلة .

(٢) الشورى : ١٥

(١) الإسراء : ١٦

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ (١) .

من هذا المنطلق كان طبيعياً أن رأينا طالبة حضرت حفلاً لتوزيع جوائز التفوق أقيم لها ولزميلاتها . وقالت الآنسة ناظرة المدرسة (في الستينيات) : اخلعي خمارك عندما تتسلمين من وكيل الوزارة جائزتك ، فرفضت الفتاة الانصياع لأمر الناظرة . وخرجت تبكي دينها وتنعي أهله رافضة استلام جائزتها .

ورأينا أخرى في المدرسة الإنجليزية (سابقاً) ، تأمرها ناظرة المدرسة أن تكون كباقي التلميذات حاسرة الرأس ، قائلة : هذه تقاليد المدرسة وتعاليمها .

فأجابت الفتاة : ولكن تعاليم الله أولى بالاتباع ، فبهتت الناظرة واستسلمت .

وفتاة أخرى خطبها شاب ، وسألها عن « الشبكة » التي تختارها فقالت : لا شيء ، أكثر من « دبله الخطوية » ، إن التي تطلب أساور من ذهب إنما تطلبها لتكون زينة معصمها المكشوف للجماهير الغادية والرائحة . وأنا مسلمة لا يحل أن يرى لحمي أحد ، فإذا اشتريت - كما تشتري الزميلات - أساور فما قيمتها ؟ إنها حلية يزدان (٢) بها اللحم الرخيص المكشوف للذباب البشري الوضع بنفسه وفجوره ، وليس لي لحم رخيص ينكشف لغير زوجي .

وهي فتاة كأنها فلقة من القمر ساحرة العينين . وقد دفعها إيمانها بالخالق الذي صورها فأحسن صورتها إلى أن تلبس منظاراً يحجب جمال عينيها ، وبقي الرائي شر سحرهما .

إنها مسلمة تعرف معنى الاستقامة أو « الالتزام » وقد سأل أعرابي رسول الله ﷺ قائلاً : يا رسول الله . . قل لي قولاً في الإسلام لا أسأل بعده أحداً . فقال عليه الصلاة والسلام : « قل : آمنت بالله ثم استقم » .

(٢) يزدان : يتزين .

(١) المتحفة : ٤

ومن منطلق الحساسية الروحية المجيدة ما رَوَى أن امرأة من صالحات نساء قريش خرجت إلى بابها تغلقه ورأسها مكشوف فرآها أجنبي . فرجعت وحلقت شعرها ، وكانت من أحسن النساء شعراً ، فقيل لها في ذلك قالت : ما كنت لأدع على رأسي شعراً رآه من ليس بمحرم (١) .

وفي قريتي سمع تلميذ في المدرسة الابتدائية من مدرسه أن رسول الله ﷺ قال فيما يروى عنه : « بين المؤمن والكافر ترك الصلاة » : وقال : « تارك الصلاة ملعون ، وجاره إن رضى به ملعون إلى يوم القيامة » . والمخلص من جارك الذي تضطر للأكل معه - إذا كان لا يصلي - أن تأكل في طبق خاص ، فإن لم يكن إلا طبق واحد فخط بينك وبين من يؤاكلك خطأ .

وعندما آب (٢) التلميذ إلى البيت ، وقدم له مع الأسرة طبق من الأرز المطبوخ باللبن خط التلميذ بينه وبين والده - الذي لا يصلي - خطأ . فسأله والده عما يفعله فأخبره بما قاله مدرسه . فكان هذا الالتزام من الشبل الصغير لدينه سبباً في تغيير حياة أبيه ، إذ قام إلى صلاته فداوم عليها حتى مماته .

* * *

• قيمة الالتزام :

وإن الالتزام مبدأ في كل التصرفات الشخصية والجماعية هو أقوى إعلان عن المبدأ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (٣) .

إن أشجع فتى وفتاة هو الذي يستعلى على تقاليد المجتمع البالية الفاسدة العفنة ، ويتحدى فجور العصر وإنحلاله ويقول بسلوكه العملي ، أو تقول الفتاة بزيها النوراني : أنا مسلم . . أو أنا مسلمة . . العظيم هو الذي يتحكم في شهواته ونزواته التي يشده المجتمع إلى إشباعها فيقول : حرام . . أنا مسلم .

(١) دولة النساء ص ٤١ . (٢) آب : رجع . (٣) انظر للمؤلف كتاب « الله أحد » فصل علاقة التوحيد بالعبادة (تحت الطبع) والآية من سورة الأحزاب : ٢١

إن الفتاة التي ترتدي خمارها وتستتر كل جسمها فلا يرى إلا وجهها وكفاها ، ثم تمشي في طريقها يكسو وجهها نور الإيمان وبهاء العفة . ورواء الشرف . إنما هي ملاك يمشي على أرض البشر في صورة عروس . . تحيىها الملائكة أنى سارت ، وتحوطها القلوب العفة أنى تحركت ، وتنظر إليها عين رسول الله ﷺ بالإعجاب ويناديها من وراء أربعة عشر قرناً : « من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد » .

أيتها المتحدة للخنا والفجور ، أنت حجة الله المتجسدة على بنات حواء ، وبني آدم . وفي عملك الدليل على أن شرائع الله - ممكن - عندما يكون إيمان صادق جاد - أن تُنفَّذ وأن تُلتزم ، وأن أحكام دين الله سهلة وميسورة .

أنت الدليل على صدق قول الله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (١) وعلى أنه سبحانه لم يشرع لنا ما يحرجننا : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٢) .

تنظم الأمم مهرجانات التقدير للشهيد ، وإن المتحجبة في عصر الإباحية أعظم في الآخرة من مائة شهيد حين تستر بخمارها عن اقتناع وإيمان بأنها تدعو إلى الله عملياً بسلوكها ومظهرها . . إنها قديسة حية حين التزمت في اعتزاز كلمة القرآن : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ (٤) أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرَةِ (٥) مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٦) .

* * *

(٣) البعل : الزوج

(٢) الحج : ٧٨

(١) البقرة : ٢٨٦

(٤) الأبناء والعبيد في العصور التي فيها رقيق .

(٦) النور : ٣١

(٥) الخدم الحصى أو الذين فقدوا الشهوة لشيخوخة أو لمرض .

• في عورة المسلمة :

المسلمة تغض طرفها ولا تكشف عن شيء من مفاتها لأحد ولو كان قريباً لها وفي بيتها ومحضر إختها . . ولا تضع خمارها جانباً ، أو تكشف شعرها إلا أمام والدي الزوجة والزوج ، والإخوة ، والأبناء ، وبنّي إختها فقط .

أما الأعمام والأخوال وبنوهم فقال بعض العلماء : هم كالأجانب حين تلقاهم . لا يجوز أن يروا شيئاً منها ما عدا الوجه والكفين ، لأن الأعمام والأخوال يصفون لأبنائهم ما يرونه من جمال بنات إختهم حرصاً على تحبيبهن إلى قلوبهم ليتزوجوهن ، فيُهيّجون جنسياً . واستدلوا بأن النفي مع الاستثناء في الآية : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ . يفيد القصر وإرادة الحصر لمن جاء الاستثناء بشأنهم بعد لفظ « إلا » .

ثم إن التفصيل والتحديد لأنواع المخالطين للأُنثى من البشر يؤكد إرادة القصر والحصر : إذ أن عادة القرآن الإجمال ، فلا يخرج عن القالب المألوف في أسلوبه إلا لقصد الحصر .

ومن العلماء من يُلحق الأعمام والأخوال بهؤلاء المذكورين في الآية باعتبارهم محارم .

ومنهم من يُلحق بهم الأقارب من جهة النسب . والأقارب من جهة الرضاع (١) .

وجاء في الفقه على المذاهب الأربعة في فصل « ستر العورة خارج الصلاة » : « وقال المالكية : عورة المرأة من محارمها الرجال : هو جميع بدنها ما عدا الوجه والأطراف ، وهي الرأس والعنق واليدان والرجلان » .

وهكذا قال الحنابلة : المرأة كلها عورة مع المحارم إلا الوجه والرقبة والرأس واليدين والقدم والساق .

(١) التفسير الواضح للدكتور محمود حجازي للآية ٣١ من سورة النور .

وقال الشافعية والحنفية : عورة المرأة الحرة خارج الصلاة هي ما بين السرة والركبة إذا كانت في خلوة أو في حضرة محارمها . أو في حضرة نساء مسلمات ، فيحل لها كشف ما عدا ذلك من بدننها بحضرة هؤلاء ، أما الكافرات فيعاملن معاملة الرجال في الاطلاع على عورة المسلمة .

ولم يفرق الحنابلة بين المسلمات والكافرات في حدود عورة المرأة المسلمة بمجالسهن ، وجرى أبو الأعلى مجرى الحنابلة خلافاً للجمهور (١) .

أما عورتها مع غير المحارم فجميعها عورة إلا الوجه كما قال الجمهور ، ويرى الحنابلة أن الوجه عورة ، ولكن العلماء اتفقوا على جواز كشف المرأة وجهها - ترخصاً - لضرورة تعلم أو تطبيب أو عند أداء شهادة أو عند تعامل من شأنه أن يستوجب الشهادة .

والمسلمة إذا مشت حاولت ألا يبدو من مفاتنها وزينتها شيء ، فالتى تلبس حذاء يكشف عن أظافرها الملونة وعن عقبها لم تعرف معنى الالتزام بمبادئ الإسلام . والتي تظهر من خمارها خصلة من الشعر لم تعرف الالتزام . إن النار ستلتهم حتماً كل مكشوف أمر الله بستره ، وحين تندلع النار في هذه الخصلة أو ذاك العقب ، أو هاتيك القلامة من الظفر ، سوف لا يمكن إطفائها حتى تلتهم الجسم كله فلا تدعه إلا فحماً تتجدد فيه الحياة ليحترق مرة أخرى : ﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ (٢) .

إن المرأة كلها عورة ما عدا وجهها وكفيها ، بل ووجهها عند الحنابلة كما ذكرنا . فيجب أن تُصان إلا على زوجها وأسررتها الخاصة ، ولها مع زوجها وفي مخدعها كل ما شئت من زينة أو ثياب أو رائحة عطرة . أما غير زوجها فلا يرى إلا ما تضطر إلى كشفه للعمل : الوجه والكفين (٣) .

(١) الفقه على المذاهب الأربعة : فصل « ستر العورة خارج الصلاة » ، والحجاب لأبي الأعلى المودودي ص ٢٩٢ - دار الفكر . (٢) النساء : ٥٦ .

(٣) انظر أحكام نظر الرجل إلى المرأة في كتابنا « شطحات مصطفى محمود » ص ٢٨٨ طبعة أولى .

فعن أبي موسى رضى الله عنه عن النبي ﷺ : « كل عين زانية . والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا » : يعني زانية . رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . ورواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ولفظهم : قال ﷺ : « أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية . وكل عين زانية » . أى كل عين نظرت إليها نظرة إعجاب واستحسان .

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس » - يشير إلى الحكم الإرهابي - « ونساء كاسيات عاريات » - يعني ذوات الملابس الضيقة والشفافة - « مميلات مائلات ، رؤسهن كأسنمة البخت » - أى الجمال - « المائلة » - نساء الموضة في اللبس وتصفيف الشعر المكشوف - « لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا » .

* * *

● لبس النقاب :

من فتيات الجامعة من تلبس النقاب فلا يُرى وجهها ، وهذا أحوط للدين ، وإن كانت النصوص لا تفيد الإلزام بهذا لأنها ليست قطعية الدلالة .

والاستشهاد بأن النهى عن التبرقع للمحرمة في الحج دليل على أن الأصل هو حرمة كشف الوجه في غير الحج مردود : إذ يُقال : لو كان كشف الوجه حراماً في الأصل لما أحل في الإحرام بالحج ، فإن الحج زيادة في الطاعة والعفاف لدرجة أنه يبطل في أثنائه عقد النكاح لمن أراد الزواج وهو محرم ، وحرمت على المحرم المعاشرة الزوجية وكل ذلك مباح في الأصل . وليس الحج تحلاً من المحرمات ومبيحاً للمثيرات .

وقد اتفق العلماء على أنه يجب على المرأة أن تستر وجهها - ولو لم يكن في ذاته عورة - عند خوف فتنة الناظرين إليها إن كانوا فساقاً أو كانت راتعة الجمال ، أو كانت متجلمة بزينة .

* * *

القضاء والقدر

• الله حكيم :

وما دمت قد آمنت بالله رحيماً عليماً خبيراً فإنني - بداهة - أؤمن بأن أفعاله جميعاً : فيها حكمة ، وقد تبدو لي اليوم ، وقد تخفى سنين . . . وكم من مصيبة أصابتني إلا عرفت لها أحد وجهين :

إما أن أكون قد قصرت وأسأت التقدير للأمر . . . ويكون تأويلي للمصيبة حينذاك هو قول الله : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (١) فلا ألوم إلا نفسي . . . ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) .

ورأى أن أكون قد بذلت جهدي في تقدير الموقف . . . ولكن كان الأمر أعظم من طاقتي . . . وحينئذ أعرف أن الله يطوي في البلية عطية . . . ويضع في المحنة منحة .

* * *

• نماذج للحكمة في البلاء :

وكلما تدهرت أموري الماضيات تكشف لي حكمة الحكيم سبحانه . . . رأيته في الصمم ابتليت به ، فكان الباب لتخليصي من تهم عقوبتها الإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة .

وغضبت زوجي أو عمل الشيطان على الوقعة بيني وبينها ، ثم بيني وبين أولادي وكانوا جميعاً مع أهمهم فلذات كبدي لا أطيق أن يجرحهم النسيم . فكان في هذا الشقاق المؤقت رحمة بي ، إذ أرغمتني أحداث شداد على أن أعيش مضطراً بعيداً عنهم وراء قضبان سجون ناصر ، ولو كانوا قبل أن يصنع الشيطان ما صنعه بيني وبينهم لكنت في اغترابي أعيش على أحر من الجمر وأعنف من حريق اللظى ، لقد كففت الخصومة المؤقتة من حب عنيف متسلط ، حب من يرى في زوجته طهارة الريف ، وفي أبنائه أمل الغد المشرق الوضاء .

(٢) الروم : ٤١

(١) الشورى : ٣٠

وفاتني القطار مرة وقد كان في انتظاري عند محطة الوصول مؤامرة وكمين نصبه الإرهاب لاعتقالي ، وحين تأخرت انصرف المتآمرون .

هكذا كلما استرجعت قصة ماضٍ مرير وتابعت ما تلاها من أحداث عرفت حكمة الله ، حتى أنني لأتساءل عند كل ضيق وأسى . ثم ماذا تريد أن تمنحني يارب بعد ذلك ؟ سبحانك لا تخلو أفعالك من الحكم !!

وما دام الله حكيماً وحكمته وراء كل عمل ، فمن البدهي أن أكون مؤمناً بالقضاء والقدر وما يقضي به الله ويُقدَّر . وطبعي أن أؤمن أنني حين أعمل سأجزى عليه وفق نيّتي وحركتي وتخطيطي ، وليس تماماً وفقاً للنتائج التي حصلت عليها . فأنا كما قال القائل :

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تتم المطالب
ولكن النتائج الطبية أو الخبيثة لعمل أقصد طبيه أو خبثه هي الدليل على ما أرجوه ، أو ما ينبغي أن أتوقعه من جزاء ، وهي أمانة على مقدار هذا الجزاء ومداه .

* * *

● آثار عقيدة القَدَر :

اتفقت كلمة فلاسفة الغرب والشرق على أن عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك ، كانت من أهم عوامل ثبات المسلمين في فتوحاتهم ، كما أنها كانت أهم أسباب نجاح المسلمين في حياتهم ، فإنهم إذا ما دهمتهم الكوارث لم يُسقط في أيديهم وتشل الأحداث تفكيرهم عما يجب أن يتخلصوا به من سوء ما أصابهم ، بل يستعيدون ما فقدوه بصورة أفضل . فالإيمان بالقضاء والقدر أقوى أسباب توازن الشخصية عند حدوث ما يبعث على اختلالها .

وفوق هذا . . . فالعاقِل يرى في إخلال القضاء والقدر بأضخم التدبيرات

البشرية والنواميس الطبيعية والاجتماعية دلالة على الله الذي وراء كل التدابير والسنن .

* * *

الحساب

• الله عدل :

ويختلف الحساب والجزاء باختلاف الطاقات : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٢) ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٣) . وفي الحديث الصحيح : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وما دام الميزان حساساً والإحصاء دقيقاً . فالمنطق الطبيعي أن يكون لي عند أى تصرف وأى مقالة وأى فكر وقفة ، أنظر فيها استقامة ما أقول وما أفعل وما أفكر مع تعاليم الله الذي يسمع ويرى ما نخفي وما نعلن ، وهذه الوقفة من شأنها عندما أعتادها أنا المسلم أو تعتادها أختي المسلمة ، أن يتولد عندي وعندها من محاسن الصفات صفة الضبط للنفس والعقل ، فلا يكون التفكير ولا العمل ولا القول عشوائياً ولا فطيراً فجاً (٤) . وإنما عن روية وتدبر ، وتخطيط .

وأمة أفرادها على هذا المستوى من النضج والسلوك قمين بها (٥) أن ترقى في أناة وثبات إلى قمة المجد ، وشخص يكون طابعه هكذا ، ينظر إليه الناس بالإجلال والاحترام ، والتقدير . . إن قال استمع إليه ، وإن تشفع قبلت شفاعته ، وإن خطب فتاة زوجها ، وإن اتجر ربح في تجارته ، وإن قاد معركة ظفر وغنم . وما دام الله الحسيب ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (٦) والمرء

(٢) فصلت : ٤٦ (٣) الزلزلة : ٧ - ٨

(١) البقرة : ٢٨٦

(٤) الفطير والفج : الذي لم يكتمل نضجه . (٥) جذير . (٦) غافر : ١٩

محاسب على كل ذلك ، فإن واجبنا ألا نطعن أحداً أو نتهمه بظنة ، وأن نفترض جميع الطبقات في كافة مستوياتها الدينية إخوة متساوين : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) .

* * *

البعث والنشور

يُراد بالبعث : إعادة الحياة إلى الموتى ، ويُراد بالنشور خروج الناس عندما تدب فيهم الحياة من قبورهم يوم القيامة ذاهبين إلى « المحشر » وهو المكان الذي فيه الحساب . . وسوقهم إلى المحشر عملية تسمى « الحشر » حيث يجتمع كل الخلاق من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة . . ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدَهُ رَسُولُهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٢) * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانِ (٣) وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٤) .

وسرعة الحساب مع كثرة العدد ودقته راجعة إلى أن الله الذي ليس كمثله شئ . هو المحاسب . . فكيفية الحساب من علم الغيب الذي لا نعرف تفاصيله ، إذ أن الله جل جلاله ليس كمثله شئ . لا في ذاته ولا في صفاته ولا في كيفية عمله وأفعاله . . ولذلك روي أن الحساب يتم في أقل من نصف يوم من أيام الدنيا .

ومع أن الله عليم فإنه سبحانه خلق لتسجيل حسناتنا وسيئاتنا ملائكة يحصونها بكافة صور الإثبات والتسجيل . . وفي المحشر توزع هذه السجلات كعرائض الدعوى للمتهم . وبراءات التكريم للصلحين ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَانُهُ طَائِرُهُ (٥) فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (٦) .

(١) الحجرات : ١ .

(٢) مقرنين : مقيدين ، والأصفاة : القيود والسلاسل . والمفرد صفة .

(٣) سراويلهم من قطران : ملابسهم من القار ، وهو الزفت . (٤) إبراهيم : ٤٧ - ٥١

(٥) طائر الإنسان : ما طار عنه من عمله . (٦) الإسراء : ١٣ - ١٤

ولا يمكن الإفلات من سينة لأنها مسجلة في كتاب محفوظ ﴿ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (١١) . وربما كانت مطبوعة في طبعة تصويرية ، كما تلتقط الأفلام التي تسجل على المجرم حركته في الخفاء ، وتعرض في صورة أشبه ما تكون بالعروض التليفزيونية ، ليقضي بالصورة على محاولة أي تفسير أو تبرير مخطئ كاذب ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٢) فالعمل نفسه منه نسخة سجلته بحاله على هيئته ، كما سجله كتاب قيد فيه العمل ذاته .

وأقصى ما يجد المرء هو أن تشهد عليه أعضاؤه بما اقترفت إن كان لدى الفاجر بقية من جراءة الفجور في إنكار الحقيقة ﴿ وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ، قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١٣)

• دليل البعث :

والحجة على جواز البعث واضحة في الآية ﴿ كَمَا بَدَأْتُمْ تُعُودُونَ ﴾ (١٤) ، وفي سورة الروم من الإقناع العقلي والتجريبي كثير . قال تعالى : ﴿ فَأَنْظِرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٥) .

وقد أتى أمية بن خلف الجمحي إلى النبي ﷺ بعظم قد رمى ولى ففتته بيده وقال : أترى يا محمد - يحيى الله هذا بعد ما رمى ؟ فقال النبي ﷺ : « نعم وبيعثك ويدخلك النار » . ونزلت الآية الكريمة : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (١٦) .

* * *

(١) الكهف : ٤٩ (٢) الجاثية : ٢٩ (٣) أنظر في كتابنا « شطحات مصطفى محمود في تفسيراته العصرية للقرآن » الرد على من ينكرون أن يكون للجلود نطق حسي - فصلت : ٢١ . (٤) الأعراف : ٢٩ (٥) الروم : ٥٠ (٦) يس : ٧٨ - ٨١

القرآن ووظيفته السياسية والاجتماعية

آمنت بالقرآن كتاباً من عند الله ، لي شرف كبير أن أتלוه وأحفظه ، بل واجبي أن أتلو فيه كثيراً وأحفظ منه ما استطعت . إن الذي يُندب ليكون المتحدث الرسمي باسم رئيس الجمهورية أو باسم الوفد البرلماني يشعر بفخار أى فخار . والمتحدث بكلمات الله في مشكلات الحياة أياً كان نوعها كيف لا يشعر بأعظم اعتزاز ؟ . إنه يناجي ربه بكلماته حين يتلوها ويتحدث باسمه سبحانه . إنه لا يشعر بالصغار من قراءة القرآن إلا من سفه نفسه . وعن ابن عباس مرفوعاً : « أشرف أمتي حملة القرآن » ^(١) . وعن ابن عمر مرفوعاً : « من قرأ القرآن فكأنما استدرجت النبوة بين جنبيه غير أنه لا يُوحى إليه ، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحداً أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم ما صغر الله وصغر ما عظم الله » ^(٢) { أخرجهما الطبراني } .

إن تشعب اللغات والألسنة يصنع حجاباً بين البشرية التي يريد الإسلام وحدتها تحت لواء واحد هو التوحيد ، وعلى قاعدة واحدة هي الإخاء . فحين دعا الناس إلى الإسلام ألزمهم الإيمان بالقرآن مصدر التشريع ، ولا مندوحة لهم عن دراسته . والتعرف على أحكامه منه ، وصلاتهم لا بد فيها من القرآن ، وفي الحديث : « ليس لك من صلاتك إلا ما عقلته منها » . ولا يتم عقل القرآن وإدراكه والتعرف على أحكامه منه إلا بإجادة لغته العربية . ومن ثم كانت فرضية قراءته : « فَاَقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » ^(٣) .

وقد روى الترمذي عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب » ، وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان يفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة » .

وقد اعتبر الجوف الخالي من القرآن خرباً لأنه كالحزائن الخاوية لا يجد المرء

(١) فضائل القرآن لابن كثير ص ١٩٣ . (٢) فضائل القرآن ص ٢٠٠ .

(٣) المزمل : ٢٠

فيها ما ينفق منه . فالقرآن كنز عظيم يد صاحبه بحل كل مشكلة . بل ويمنحه الحكمة التي هي زينة المتحدث ، والرشاد وهو فخر المستقيم . ولقد تحدث الدكتور « مورييس بوكاي » المستشرق الفرنسي عن هذا الكنز الذي إن فقدته المسلم كان كالجوف الخرب فقال :

« القرآن ندوة علمية للعلماء ، ومعجم لغة للغويين . ومعلم لمن أراد تقويم لسانه ، ودائرة معارف للشرائع والقوانين . وكل كتاب سماوي جاء قبله لا يساوي أدنى سورة من سوره في حسن المعاني وانسجام الألفاظ . ومن أجل ذلك نرى رجال الطبقة الراقية في الأمة الإسلامية يزدادون تمسكاً بهذا الكتاب واقتباساً لأياته ، يزينون بها كلامهم ، ويبنون عليها آراءهم كلما ازدادوا رفعة في القدر ونباهة في الفكر » .

واعتبر البيت الذي لا يُتلى فيه القرآن كالمقبرة التي فقد سكانها الروح الذي به الحركة والحياة فأصبحت الأجساد بها عفنة . وهكذا الحياة الاجتماعية حين تفقد القرآن - الذي يُزَكِّي النفس ويتسامى بها عن الخنا والفجور والغدر والخيانة والظلم ، ويُحَلِّق بالمجتمع إلى آفاق الحب والإخاء والعدل والمودة - تصبح الحياة حين تفقد القرآن عفنة مخيفة هامة كالمقبرة .

وإن الوحدة الفكرية والدستورية التي يُقضى بها على التمزق الاجتماعي والسياسي تتم بجمع الناس على شيء لا يختلفون في تقديسه وتعظيمه وصحته . وليس هناك أقدم ولا أعظم ولا أصح من القرآن . فتلاوته عملية حتمية لإيجاد تجانس فكري بين الأمة التي تمزقت حول المذاهب والأفكار المنحرفة التي يبدو فيها كل يوم ثلمات تقتضي الثورة لتصحيحها .

فلا بد لكل وطني مؤمن بوطنه أن يُسهم في صنع الوحدة الفكرية المؤمنة التي هي القاعدة الوحيدة الصالحة لإنشاء وحدة سياسية وجماعية متلاحمة بصدق . لا بد له من أن يعيش مع القرآن يتلوه ، ويتدبر كلماته اللغوية وأسباب نزوله ومرامي آياته وتشريعاته ثم يأخذ نفسه بالتدريب على الجانب العملي منها

ويتحدث مع الناس فيما فهمه ، فهذا هو طريق النهضة ، فقد روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله يرفع بهذا الكلام أقواماً ويضع به آخرين » .

إننا نشاهد اليوم تجمعاً أسبوعياً لمعظم العائلات التي تملك جهاز تليفزيون حول الفيلم الأسبوعي الذي يستمر عرضه ساعتين . وفي شهر ديسمبر ١٩٧٢ كان عرضه ليلة الجمعة - وتذكرت الإسلام قبل الانهيار الذي صرنا إليه حيث كانت المسلمة مع زوجها وبنيتها ليلة الجمعة يتلون سورة البقرة كل أسبوع بما تضمنته من أحكام الأحوال الشخصية والعبادات ، ودراسة الأحوال الاجتماعية للأمم ، وبخاصة الإسرائيليين والمنافقين والمشركين ، وما تضمنته من تاريخ التحرك الإسلامي وطبائع الناس .

وتذكرت كيف كانت المسلمة في أسرتها تُعد طعام البيت ، ثم يجلس الجميع إلى كتاب الله في صباح الجمعة يتلون سورة آل عمران بما فيها من قصة البتول الطاهرة مريم ابنة عمران .

ويدرسون كيف يرعى الله الأتقياء . . وكيف تنهزم جحافل الشر وينتصر الحق . ويتدبرون مغازي رسول الله ﷺ في السورة ، وآداب الحديث والصدقة ، وقد روى مسلم في صحيحه عن الثَّوَّاس بن سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « يُؤْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْقُرْآنِ وَأَهْلَهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا ، تَقْدَمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ مُحَاجَّانَ - تَدَافِعَانِ - عَنْ صَاحِبِهِمَا » .

وتذكرت كيف كانت المسلمة تصلي أو يصلي معها زوجها والجميع في خشوع يقفون في صلاة صبح الجمعة يقرأون في الركعة الأولى سورة السجدة بأكملها وفي الركعة الثانية سورة الدهر (الإنسان) .

ثم يجلسون يتذكرون ما تُلى عليهم في صلاتهم من قصة ابتداء الخلق ، ويتعرفون على المصير النهائي لسلسلة البشرية ، وبهذا تربو ثقافة المسلمة ولا تمضي في الحياة جاهلة بالبدء والمصير الذي ابتدأت به وتنتهي إليه حياتها .

وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي يقول : ياويله - وفي رواية - يا ويلي : أمر ابن آدم بالسجود فسجد ، فله الجنة . وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار » .

ثم يقول أفراد الأسرة يستحمون للجمعة ، ويعودون إلى كتاب الله في يوم عيد الإسلام الأسبوعي ليقروا سورة الكهف بما فيها من بيان دور الشباب المؤمن الذي يتحدى الفساد فينتصر إيمانه بعد صراع طويل « ثَلَاثَ مِائَةِ سَنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا » (١) ، ويتعرفون على طبيعة الصراع بين الإنسان والشيطان وبين طغيان المال ، وجلال الإيمان . وقد جاء في صحيح مسلم عن أبي الدرداء رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصمه الله من الدجال » .

وقد روي مثل هذا أيضاً عن العشر الأواخر من سورة الكهف . ولقد كانت المسلمة تُعَلِّم الغزل وما يمكن أن تسهم به في دعم اقتصاديات المنزل أو حسن تدبيره كما تُعَلِّم سورة الواقعة ، وتبارك ، والدخان ، ويس ، والتحريم ، والطلاق ، والنساء ، والنور ، والبقرة ، وآل عمران ، والكهف .

إنها ذات رصيد من الفضيلة بمقدار ما تتعبد به من سور القرآن . تلاوة وعملاً . وقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة - أى التفاحة - ريحها طيب وطعمها حلو . ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها حلو . ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ، ريحها طيب ، وطعمها مر . ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، لا ريح لها وطعمها مر » وفي رواية : مثل « الفاجر » بدل « المنافق » .

والعجب كيف ينتسب إلى الإسلام إنسان ليس لديه وضوح لرؤية هذا الإسلام، وليس للإسلام مصدر أعظم من القرآن ثم صحيح حديث رسول الله ﷺ . . وكيف تصل تعاليم الله ومفاهيم الإسلام لإنسان لا يعيش مع القرآن طويلاً . . وطويلاً جداً . . بتأمل واهتمام وتدبر ؟

إن الشيوعي لا يُعد نفسه شيوعياً إلا إذا قرأ رأس المال لكارل ماركس والمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية لستالين - والمنفستو وغيرها ، لأنها المصادر الرئيسية لعقيدته . . فهل هان إسلام المسلم إلى حد أنه أصبح يكتبه وثقافته أقل احتراماً من شيوعية الشيوعي وكتبها . وأقل جدارة بالدرس من كتب الشيوعية ؟ أو هل الذي أنزل الكتاب على عبده محمد ﷺ أقل قدرة على المنطق السليم من ماركس ولينين وستالين وأنجلز ؟ أو أقل منهم جدارة بأن يُهتم بما أنزله ؟ !

الناس تكاد في تصرفاتها تكفر بالله وهي لا تدري ، وصدق رسول الله إذ حذرنا ذلك فقال : « اتقوا الشرك فإن الشرك أخفى من دبيب النمل » . . وعلمنا أن نستعبد منه فنقول ، ونحن نعي ما نقول ، ونجد حين نقول صباحاً ومساءً : « اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئاً أعلمه ، وأستغفر لك لما لا أعلمه » ، ونكرها ثلاثاً .

إن دعوة الله ورسوله والمصلحين إلى تلاوة القرآن ليست دعوة إلى قمتة كهنوتية وترنيمات مسيحية . إنها دعوة إلى عمل هام في عملية التحول والتغيير . . إنها عملية وضع أيديولوجية واضحة لدى المسلمة تنشئ عليها الجيل الصاعد بعد أن ظلت تعيش بلا أيديولوجية ولا أي مفهوم سليم عن الإسلام . . إنها خطوة هامة ورئيسية لإنقاذ الإسلام من خطة الإبادة المثوية التي رسمها الاحتلال البريطاني مع أدواته في مصر منذ وطئت أقدامه الوادي عام ١٨٨٢ . . وقد حدد المؤثرون على الإسلام في مصر مائة عام يتم فيها القضاء على آخر مقومات الإسلام في البلد الحبيب « مصر » ، وهي مؤامرة يتعاون

فيها ويستفيد منها الإلحاد والصهيونية والوثنية معاً .. وفي رسالة أخرى سنوضح - إن شاء الله - كيف يعمل الكفر ضد الإيمان ، وقرر أحرار الأقباط في مصر رفض التعاون مع الاحتلال البريطاني في مؤامراته حرصاً على الوحدة الوطنية .

وكثيراً ما أرى الفتاة يبرق على صدرها الناهد حلية ذهبية تصوّر المصحف تتبرك بها . . وهذه شارة دالة على تمجيد كتابها . وكان الجدير بها أن تتعرف على ما في هذا الكتاب الذي علقت صورته . . كان الجدير بها أن تضعه داخل صدرها في أعماق قلبها ، سورة سورة وآية آية ، تحركها في سلوكها كله ، فإن لبست ثيابها لم تلبس ثوبا يلعنها القرآن الذي تُعلّق صورته إذ يقول : ﴿ وَلاَ تَبْرُجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ (١) . ويلعنها إذ تمشي تلفت إليها الأنظار براحتها ، ونوع ثيابها ، أو بحركتها ونظراتها .

ولا أمنع يا أختي تعليق حلية الذهب كتذكّار يشير إلى أنك مؤمنة بالقرآن ، ويذكرك بمضمون آياته ، ولكن أود يا أختي أن تجعل القرآن ربيع قلبك . ومنهج حياتك كلها ، وأخاف عليك يوماً تقفين فيه أمام الله للتحقيق ، وفي حضرة رسول الله ﷺ ، وتكونين في الطائفة المنبوذة التي يحكي الله موقف الرسول منها فيقول سبحانه : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (٢) .

وهل هناك هجر للقرآن أوضح من أن تُعلّقه المسلمة خلفها في السيارة ، أو أمامها ، أو على المكتب أو الجدار أو المنضدة . ثم لا تفتحه ، وربما لا تفض العلبة الأنيقة التي قبرته فيها للتعرف على ما فيه من حكمة وهدى ، إننا نعيش مأساة الإسلام في القرن العشرين بالمنطق المعكوس .

وأمنع تعليق المصحف الرمزي حين يصبح مظهراً من مظاهر الزينة ، ويقصد الزينة ، لا رغبة في إظهار الاعتزاز بهدى هذا الكتاب الكريم ، في الوقت الذي اعتبره الملاحدة شارة التأخر والرجعية .

* * *

• بعض أحكام القرآن في التلاوة :

١ - إن استطعت أن تتوضئ لتحمل المصحف فافعل ، وإلا فاحمل المصحف واقراء بأي حال ، ولكن فقط لتتزمين بقول رسول الله ﷺ : « لا يقرأ الحائض ولا الجنب شيئاً من القرآن » . ففي هذه الحال يكون توجهك إلى دراسة الأدب والفقه والتوحيد والمجالات الإسلامية ورسائل الدعوة الإسلامية ، وقد أجاز بعض المالكية للطالبات قراءة القرآن للتعلم في حصص الدراسة ، لا للتعبد بالتلاوة . وقال ابن عباس في الآيات : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » (١) : الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ ، والمطهرون هنا هم الملائكة ، فاستدلال الشافعية بهذه الآيات على تحريم مس المصحف لمن ليس متوضئاً . باطل بناء على تفسير ابن عباس . وإنما التطهر مستحب تأسيئاً بالملائكة المقربين .

٢ - استشعري أنك تقرئين كلام الله وتناجيه بكلماته ، وهو حاضر معك يراك ويسمعك ، فتضرعي إليه كما تتضرع الفتاة لأبيها الرحيم أن يمنحها شيئاً ، أو يغفر لها خطيئة . والله المثل الأعلى . وقد روى النووي في التبيان عن رسول الله ﷺ قال : « اقرأوا القرآن وابكوا . فإن لم تبكوا فتباكوا » .

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ على القرآن ، فقلت : يا رسول الله . . أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمع من غيبي . فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً » (٢) . قال : حسبك الآن ، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان » - أي تسيل دموعهما .

٣ - لا بد من تجويد القراءة بتقليد قراءة المصحف المرتل ، ومن الكتب التي تضمنت أحكام التلاوة والتجويد « علوم القرآن » لأحمد عادل كمال . أو « التجويد وعلوم القرآن » لعبد البديع صقر .

(٢) النساء : ٤١

(١) الواقعة : ٧٧ - ٧٩

٤ - تُسن الاستعاذة عند قراءة أى شئ من القرآن ، وقيل : تجب ، كما تسن البسملة فيما عدا التوبة ، ويجمع بين الاستعاذة والبسملة فى أوائل السور . أما وسط السور فقيل : يجمع ، وقيل : يُستعاذ ولا بسملة .

٥ - يُستحب إكثار تلاوة القرآن فى شهر رمضان ، لأنه ابتدئ بنزوله فيه . ولهذا كان جبريل يعارض به رسول الله ﷺ - أى يُسمع له - فى كل سنة فى شهر رمضان ، فلما كانت السنة التى توفى فيها عارضه مرتين تأكيداً وتثبيتاً .

وكان النبى ﷺ إذا تعب من الوقوف فى تهجده ولم يفرغ من السورة جلس فقرأ ما شاء الله أن يقرأ . فإذا أراد الركوع قام واستمر يقرأ ماتيسر ، ثم كبر للركوع فركع ..

وروى مسلم عن حذيفة أن رسول الله ﷺ قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران ، وقرأ عمر من الفجر بسورتى النحل ثم يوسف (١) .

وحذا لو حفظت المسلمة شيئاً فى نهارها لتستعيده فى صلاتها ، ولا بأس أن تستعين بالمصحف إذا طالت قراءتها ولم تكن تحفظ الآيات جيداً .

٦ - لا يجوز أن يكتب القرآن طبقاً لقواعد الإملاء الحديثة عند مالك (٢) . إلا ما كان آية أو بضع آيات استشهد بها فى كتاب أو مقال .

٧ - القراءات السبع ترجع إلى مصحف عثمان الذى أجمعت الأمة على صحته وكلها نزل بها الوحي على النبى ﷺ ، فهى فى تعددها كالحديث الذى قاله النبى ﷺ عدة مرات ، فروى بعدة وجوه كلها صحيحة ، وإن اختلفت بعض الحروف أو الكلمات التى لا تغير المعنى تغييراً يبلغ درجة التناقض .

قال القرطبى : وقد سوغ كل واحد من القراء السبعة قراءة الآخر وأجازها ، وإنما اختار القراءة المنسوبة إليه ، لأنه رآها أحسن وأولى عنده (٣) .

(١) فضائل القرآن لابن كثير ص ٣٨ - ط المنار ١٣٤٧ هـ .

(٢) المرجع السابق ص ٥١ . (٣) المرجع السابق ص ٨٠ .

٨ - والجمهور على أن كتابة القرآن بالخط العثماني واجبة .. إلا ما كان شاهداً في مقال .. وجعلوا لكل كلمة خالفت طريقة الكتابة الحديثة معاني دلت عليها طريقة الكتابة المصحفية .

٩ - إذا اشتبه عليك حرف هل هو بالتذكير أو التأنيث ، فاجعله مذكراً لأن التذكير أفضل ، وإذا شككت هل هو بالرفع أو غيره فالرفع أفضل ، أو هل هو بالنصب أو الجر فالنصب أفضل ، أو في لفظ هل هو موجود في الآية أم لا : فاتركه ، أو شككت في العطف أبالفاء أو الواو ، فاجعله بالواو .

* * *

